أمّا الزمن الرأسي، فهو الزمن الذي بدأه حامد منذ بدء السرد، إنه الزمن الذي تحتضن فيه اللحظة اللحظة، تتعانقان، فتولد لحظة ثالثة، هي شيء من هذه ومن تلك، إنه الزمن الذي يتواشج فيه الماضي مع الحاضر، عبر ما هو جدير بالحياة من كليهما، وما هو قادر على خلق لحظة المستقبل التي تتخلق في رحم إرادة الانسان، إنه زمن «دقّات محشودة بالحياة»(٧٧)، إنه زمن إجادة التصويب، زمن سرقة الزمن، أي جعله في حوزتنا، ملكنا، وهما الامران اللذان حاولهما حامد في النص التأسيسي المشار اليه، بما ينطويان عليه من مدلولات، وما يكثفان من نبوءات أحالهما حامد الى وقائع في الزمان لحظة أن أحست الصحراء «بخطواته على الحافة» أي لحظة أن غادر المخيم والبيت وغزة كأماكن يخيم عليها وعلى ناسها زمن أفقي باهظ لا يرحم، زمن يتوكأ على عكاز مفرد داخل نعش مغلق بإحكام.

ومثلما هي الساعة حيزاً ـ نعشاً لموت زمن باهظ، هكذا ترى مريم لنفسها فتقيم تقابلاً تجاوبياً، بينها وبين الساعة، هو على النقيض من التقابل الضدي القائم والمتنامي بين زمن حامد، زمن الصحراء، وبين زمن الساعة ـ النعش، الزمن المخيم على البيت وعلى المخيم. إن مريم التي تعيش الدقات الرهيبة للعكاز لا تعيش موت اللحظات بقدر ما تعيش موتها. انها «جثة تتوهج»(٧٨) داخل الثياب، وهي ترى الى الساعة وهي «تشيع نفسها كل صباح في نعشها الصغير»(٧٩) أمام عينها وهي تبدل ثيابها التي تظل مشتعلة بوهج الموت عندما تخلعها، وتعلقها على الجدار، إن الزمن الذي يموت داخل الساعة ـ النعش، هو نفسه الذي يموت داخل مريم ـ الجثة التي تتوهج بموتها. يصير جسدها نعشاً آخر، وتبدو هي أمام نفسها «فتاة» مقطعةً تشيّعها دقات مبحوحة، قاطعة وساخرة»(٨٠). إنها عاجزة عن التعرف على كينونتها، وعن إدراكها في تلاحمها وكليّتها، فليس في هذا البيت ـ القبر، مرآة واحدة يمكن أن تنعكس عليها صورة كلية لأي من سكانه، مثلما لا تعكس الساعة ـ النعش أي حضور كلي للزمن، بل تدفن الزمن الذي مات، والزمن الذي يولد ليموت، فتكثف بحضورها حضور الموت، فيتجسد موت الزمن في مكان هو الساعة ـ النعش، مثلما يتجسد موت الذات عبر تشظيها وتمزقها من خلال مرآة صغيرة تصبح بدورها نعشاً آخر، تقول مريم: «لم يكن ثمة في البيت كله مرآة كبيرة واحدة لأرى جسدي فيها مرة واحدة، كنت أرى وجهي فقط، وحين أحرّك المرآة فتمر صورة صدري وبطني وفخذي تبدو لي قطعاً غير موصولة بعضها ببعض»(٨١)، وعلى هذا النحو من الاحساس العارم تشظي الذات، وبتمزقاتها، ترى مريم الى نفسها في الساعة ـ النعش والسرير ـ النعش، والمرآة النعش، فهي وقد خلعت من حياتها «خمساً وثلاثين سنة... سنة سنة وقطعة قطعة»(٨٢)، وراحت تبحث عن حلّ لتشظياتها، ومأساة حياتها، عبر علاقتها بزكريا، لم تجد في هذه العلاقة غير تعميق للمأساة، ومزيد من التمزق والتشظي. وعلى هذا النحو يكون ماضيها هو ماضي حامد، غير ان لهذا الأخير حاضراً هو على النقيض من حاضرها، وهي إذ تدرك هذا الامر، عبر توترات طويلة تتكثّف في آخر الأمر في حوارها الكاشف مع زكريا، تكون قد أدركت أن لخطوات حامد مغزى عميقاً، إذ هي التي تعطي للزمن الانساني جوهره ومغزاه؛ تعطيه حياته وكينونته في الوجود.

ويكون هذا الادراك مقدمة ضرورية لتحول الوعي وانبثاق الوعي الممكن الذي يتخلق في لحظة الفعل نفسها، أو قبل برهة نكاد لا نقبض عليها، ويكون لتقاطع الفعل الذي تقدم عليه مريم، مع الفعل الذي يقدم عليه حامد، ووقوعهما في لحظة واحدة من الزمن المحشود بالحياة، مغزاه العميق: اجتماعياً ووطنياً بما ينطوي عليه من رؤية تصل التحرر الوطني بالتحرر الاجتماعي، وتجعل من التحرر من الماضي الميت مدخلاً ضرورياً للولوج في زمن الحياة والفعل.

قبل هذه البرهة التي نتحدث عنها يكون حامد قد اطّرح ساعته اليدوية التي بدت له «مجرد